ABES13

[**الوَسَطِيَّةُ وَالْاعْتِدَالُ فِي ضَوْءِ الْقُرْآن الْكَرِيم**](http://al-badr.net/detail/FUs0YWxIM1X6)

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا اللهُ وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، صلى الله وسلَّم عليه وعلى آله وصحبه أجمعين . اللهم لا علم لنا إلا ما علَّمتنا ، اللهم علِّمنا ما ينفعنا وزدنا علمًا ، وأصلح لنا شأننا كله ولا تكِلنا إلى أنفسنا طرفة عين ، اللهم اهدنا إليك صراطًا مستقيما ، ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب.

معاشر الكرام : حديثنا هذا الصباح حديثٌ عن موضوع مهم للغاية ، ينبغي على حامل القرآن بل على كل مسلم أن يكون على دراية به .

والقرآن كتاب الله عز وجل ووحيه وتنزيله ، نزل هذا القرآن هدايةً للبشرية وصلاحًا للعباد وتحقيقًا لسعادتهم في دنياهم وأخراهم ، فهو كتاب سعادة دنيوية وأخروية كما قال الله سبحانه وتعالى {طه (1) مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى}[طه:1-2] أي إنما أنزلناه عليك لتسعد ويسعد به من كان من أهله ، {فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى}[طه:123] .

وفي القرآن هداية لأقوم السُّبل وأكمل الطرق كما قال الله سبحانه وتعالى: {إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ}[الإسراء:9-10] أي يهدي لأرشد السبل وأقومها وأصلحها وأنفعها للعباد وأبعدها عن ما فيه المضرة عليهم .

والقرآن صراط مستقيم وحبل متين يوصِل المتمسك به إلى رضوان الله عز وجل وجنات النعيم ، ولهذا لما سئل عبدالله بن مسعود رضي الله عنه عن الصراط المستقيم قال : «هو حبلٌ تركنا النبي صلى الله عليه وسلم في أدناه وطرفه الآخر في الجنة» فالقرآن حبل ممدود ، إذا أمسك القرآن بهذا الحبل ولم يفرط فيه أوله إلى الجنة {وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ}[الأعراف:170] ، من كان متمسكًا بالقرآن عاملًا بالقرآن مهتدًيا بهدايات القرآن يوصله إلى منازل الرضوان والفوز بالجنان والنجاة من سخط الرحمن .

وقد امتدح الله سبحانه وتعالى أمة القرآن أمة محمد عليه الصلاة والسلام بأنها خير أمة أخرجت للناس ، وأنها أمة خيار عدول وسط ، لا غلو فيهم ولا جفاء ، لا إفراط فيهم ولا تفريط ؛ وهذه الوسطية التي امتدحهم الله سبحانه وتعالى بها مردُّها إلى لزومهم صراط الله المستقيم وهديه القويم المبيَّن في كتابه العظيم القرآن الكريم ، وتأمل في بيان ذلك قول الله سبحانه وتعالى {سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (142) وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا}[البقرة:142] ، تأمل الارتباط {يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ } ، {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا} ؛ فإن قوله{ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا} عقب قوله{يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ } يفيد أن هذه الوسطية التي امتدحهم الله سبحانه وتعالى بها وأثنى عليهم بتحقيقها مردُّها إلى لزومهم صراط الله المستقيم ، فلا يميلون عنه يمينا ولا شمالا .

وقد ضرب النبي عليه الصلاة والسلام لهذا الأمر مثلا واضحا بيِّنًا حيث وضع صلى الله عليه وسلم اصبعه الشريف صلى الله عليه وسلم على الأرض وخط خطا ممتدا مستقيما ، ثم وضع إلى جنب هذا الخط خطوط عن يمينه وعن شماله عديدة ، ثم قال عليه الصلاة والسلام : ((هذا صراط الله المستقيم)) وجاء في بعض روايات الحديث ووضع يده عفى الخط الوسط ((ثُمَّ وَضَعَ يَدَهُ فِي الْخَطِّ الْأَوْسَطِ)) وقال هذا صراط الله المستقيم ، وعلى جنبتيه سبُل ، وعلى كل سبيل منها سلطان يدعو إليه ، قال الله سبحانه وتعالى {وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ }[الأنعام:153].

فالصراط المستقيم هو القرآن ، هو حبل الله المتين ، هو دين الله الذي رضيه سبحانه وتعالى لعباده ولا يرضى لهم دينًا سواه ، هو الذي أنزل الله سبحانه وتعالى فيه وحيه الحكيم وذكره العظيم ، قال الله سبحانه: {وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (52) صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ}[الشورى:52-53] ؛ فهذا الصراط المستقيم الذي رُسم لنا في القرآن وحُدَّت به حدوده وبُيِّنت معالمه وأرسِيت قواعده وذُكرت ضوابطه لا يكون المرء من أهله إلا بالاعتصام بهذا القرآن حبل الله المتين { وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا}[آل عمران:103] ، فهلاك الناس في تفرقهم خروجًا عن هذا الصراط ذات اليمين وذات الشمال ، وسعادتهم في هذه الوسطية بلزوم صراط الله المستقيم الذي خُطَّت لهم معالمه في كتاب الله وذُكرت مناراته فيه وأعلامه البيِّنة ؛ ليكون المرء على جادة سوية وعلى صراط مستقيم .

وقد أوضح النبي عليه الصلاة والسلام هذا الأمر أيضا في مثل آخر عظيم للغاية ؛ ينبغي معاشر الكرام أن نعي هذا المثل تمامًا لعظيم فائدته وكبير عائدته ، وهو مخرَّج في مسند الإمام أحمد وغيره بسند صحيح ثابت عن النواس بن سمعان رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ((ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا، وَعَلَى جَنْبَتَيْ الصِّرَاطِ سُورَانِ)) أي جداران ممتدان بامتداد هذا الصراط ، ((فِيهِمَا أَبْوَابٌ مُفَتَّحَةٌ)) أي أن الذي يمشي في هذا الصراط المستقيم على يمينه وعلى شماله أبواب عديدة كثيرة يمر بها وهو يمشي على هذا الصراط ، ((وَعَلَى الْأَبْوَابِ سُتُورٌ مُرْخَاةٌ)) كل باب من هذه الأبواب عليه ستار مرخاة على هذا الباب ، ((وَعَلَى بَابِ الصِّرَاطِ دَاعٍ يَقُولُ: أَيُّهَا النَّاسُ، ادْخُلُوا الصِّرَاطَ جَمِيعًا وَلَا تَعُوجُوا)) أي سيروا عليه سيرا مستقيما لا اعوجاج فيه ولا انحراف ، ((وَدَاعٍ يَدْعُو من جوف الصراط في رواية مِنْ فَوْقِ الصِّرَاطِ، فَإِذَا أَرَادَ يَفْتَحُ شَيْئًا مِنْ تِلْكَ الْأَبْوَابِ، قَالَ: وَيْحَكَ لَا تَفْتَحْهُ، فَإِنَّكَ إِنْ تَفْتَحْهُ تَلِجْهُ)) ، ثم بيَّن عليه الصلاة والسلام هذا المثل العظيم الذي ضربه الله لعباده ، لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال في أول الحديث ((ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا)) فمثل ضربه الله لعباده بيَّنه لنا النبي عليه الصلاة والسلام . قال صلى الله عليه وسلم في توضيح هذا المثل : (( وَالصِّرَاطُ: الْإِسْلَامُ ، وَالسُّورَانِ الذين على جنب الصراط : حُدُودُ اللهِ، وَالْأَبْوَابُ الْمُفَتَّحَةُ التي عليها ستور مرخاة : مَحَارِمُ اللهِ، وَذَلِكَ الدَّاعِي عَلَى رَأْسِ الصِّرَاطِ: كِتَابُ اللهِ، وَالدَّاعِي مِنِ فَوْقَ الصِّرَاطِ: وَاعِظُ اللهِ فِي قَلْبِ كُلِّ مُسْلِمٍ)) .

هذا مثل عجيب جدا يوضح لنا هذه الوسطية وهذا الاعتدال الذي يدعو إليه القرآن الكريم ((دَاعٍ يَقُولُ: أَيُّهَا النَّاسُ، ادْخُلُوا الصِّرَاطَ جَمِيعًا وَلَا تَعُوجُوا)) أي لا تنحرفوا عنه يمينا وشمالا ، والسائر على الصراط يأتيه في الطريق مرات وكرَّات أبواب تفضي إلى الاعوجاج والانحراف عن الصراط ، وهذه الأبواب ليس عليها كوالين وأقفال وإغلاق بإحكام ، لا عليها ستار ، الباب الذي عليه ستار لا يكلِّف الداخل شيء ولا يأخذ منه وقت ، يدفع الستار بطرف كتفه ويدخل ، ولهذا الدخول إلى الطرق المعوجة المنحرفة قريبة من الإنسان ليست بعيدة عنه ، لا يظن المرء أنها بعيدة بل يسأل الله أن يسلِّمه يارب سلِّم سلم ، وإلا هي قريبة من الإنسان عن يمينه وعن شماله طوال سيره تعرِض له ، وعليها ستور مرخاة وربما جر الإنسان إلى تلك الطرق المعوجة الفضول الذي هو في ابن آدم لا ينجو منه إلا القليل ، يرى ماذا وراء هذا الستار ثم يفاجئ وإذا به قد دخل مع المنحرفين فيه وتورط مع الزائغين عياذا بالله سبحانه وتعالى من ذلك .

ولهذا فإن أهم ما يكون في هذا الباب والحديث عن هذا الموضوع العظيم «الوسطية في ضوء القرآن» أن يزم المرء نفسه بزمام القرآن متمسكًا به ، معتصمًا به ، مهتديًا بهداياته ، متعظًا بعظاته وعبره ، ممتثلا أوامره ، منتهيا عن نواهيه ، واقفا عند حدوده ، غير متجاوزٍ ولا متعدٍ ، أن يكون فعلا من أهل هذا القرآن ، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام : ((إِنَّ لِلَّهِ أَهْلِينَ مِنَ النَّاسِ)) قِيلَ: مَنْ هُمْ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: ((أَهْلُ الْقُرْآنِ هُمْ أَهْلُ اللهِ، وَخَاصَّتُهُ)). أهل القرآن ليس مجرد كلام أو وصف يضاف إلى النفس أون إلى الغير، أهل القرآن بالعمل به، ولهذا جاء في الصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((يُؤْتَى بِالْقُرْآنِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَأَهْلِهِ الَّذِينَ كَانُوا يَعْمَلُونَ بِهِ)) هكذا قال، فلا يكون المرء من أهل القرآن إلا بالعمل بالقرآن ، قد يكون المرء حاملا للقرآن حِفظا أو كثرة قراءةٍ لكنه لا يعمل به فيكون جافيًا أو يتجاوز حدوده فيكون غاليا فلا يكون بذلك من أهله وإن حمله حفظًا وكثرة قراءة ، وقد قال النبي عليه الصلاة والسلام عن الخوارج : (( تحقرون قراءتكم مع قراءتهم يقرأون القرآن لا يجاوز تراقيهم)) ومعنى لا يجاوز تراقيهم أي أن حظهم من القرآن مخارج الصوت فقط ، لأن مخارج الصوت أقصاها الحروف الحلقية ، فهم حظهم هو هذا مخارج الصوت ، أما حظ القلب من القرآن فهمًا واتعاظا واعتبارا وإيمانا وتحقيقا لهداية القرآن بعيدون عن ذلك يقرأون القرآن لا يجاوز تراقيهم ، وليست قراءتهم للقرآن قراءة قليلة بل هي قراءة كثيرة لكن حظهم من هذه القراءة هو مخارج الصوت فقط ((لا يجاوز تراقيهم)) هكذا قال عليه الصلاة والسلام ، ومعنى لا يجاوز تراقيهم : أي حظهم منه هو في حدود مخارج الصوت فقط أما الاهتداء به والعمل بهدايته والتدبر له والعقل لمعانيه فهم بعيدون عن ذلك ، والقرآن إنما أنزل لتُتدبر آياته وليُهتدى بهداياته {كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ}[ص:29] ، {أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا}[محمد:24] ، {أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا}[النساء:82] ، {قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ تَنْكِصُونَ (66) مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ (67) أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ}[المؤمنون:66-68] أي القرآن ، والمعنى أنهم لو تدبروا القول لسلِموا من النكوص على الأعقاب ، فالقرآن يهدي للتي هي أقوم .

حامل القرآن حفظا وقراءة لا يكون بمجرد ذلك من أهله حتى يهتدي بهدايات القرآن ويلزم الصراط المستقيم الذي خُط في هذا القرآن الكريم ، ولهذا جاء في مسند الإمام أحمد بسند ثابت أن النبي صلى الله عليه وسلم قال ((اقْرَءُوا الْقُرْآنَ، وَلَا تَغْلُوا فِيهِ، وَلَا تَجْفُوا عَنْهُ)) ؛ وهذا يفيد أن من الناس من يقرأ القرآن ويجفو ، ومن الناس من يقرأ القرآن ويغلو فيه ، وهذا على خلاف النهج وذاك على خلاف النهج والحق قوامٌ بين ذلك . قد يكون قارئا للقرآن لكن يجفو عنه ، ومعنى يجفو عنه أي يفرط في العمل بالقرآن والائتمار بأوامر القرآن والانتهاء عن نواهي القرآن ، وهذا نوع من الهجر للقرآن حتى وإن قرأه أو حفظه ، وربما كان القرآن حجةً على بعض الناس لا لهم ((وَالْقُرْآنُ حُجَّةٌ لَكَ أَوْ عَلَيْكَ)) ، ((إِنَّ اللَّهَ يَرْفَعُ بِهَذَا الْكِتَابِ أَقْوَامًا وَيَضَعُ بِهِ آخَرِينَ)) ، قال قتادة : «ما جلس أحد إلى هذا القرآن إلا قام منه إما بزيادة أو نقصان» ، إذا لم يهتدِ بهدايات القرآن ويزم نفسه بزمام القرآن ويُلزم نفسه بصراط الله المستقيم المبين في القرآن لا يكون بذلك من أهل القرآن .

فالحاصل أن من الناس مع هذا القرآن منهم من يجفو يقرأ القرآن لكن يجفو عنه ، وآخر يقرأ القرآن لكن يغلو فيه يتجاوز حدوده غلوًا في دين الله سبحانه وتعالى ومجاوزةً للحد ، مثل مسلك الخوارج ، الخوارج يقرؤون القرآن لكنهم تجاوزوا القرآن ، وأعمالهم ليست قائمة على دليل من كتاب الله وإنما هي قائمة على فهوم معوجَّة منحرفة مباينة لصراط الله المستقيم ، وهم يظنون في أنفسهم أنهم ينصرون دين الله سبحانه وتعالى ، وليس في مسلكهم نصرة للدين ، ومن يقرأ سيرتهم على مد التاريخ يدرك ذلك ؛ أن مسلك الخوارج دائما ليس من ورائه إلا التأخر والضرر لا يحقق منفعة ، كما قال شيخ الإسلام بن تيمية رحمه الله ملخِّصا مآلات مسلك الخوارج قال : «فما أقاموا دينا ولا أبقوا دنيا» ، لأنه مسلك غالي متجاوز للحد الذي حد في كتاب الله سبحانه وتعالى . وغلوهم منشأه أنهم لا يفقهون القرآن وحظهم منه مجرد القراءة بلا فهم ولا دراية بمعانيه ودلالاته وهداياته .

وقد جاء في هذا المعنى حديث عظيم رواه أبو داود في مسنده وغيره وهو حديث ثابت ، يقول عليه الصلاة والسلام: ((إِنَّ مِنْ إِجْلاَلِ اللَّهِ إِكْرَامَ ذِى الشَّيْبَةِ الْمُسْلِمِ ، وَحَامِلِ الْقُرْآنِ غَيْرِ الْغَالِى فِيهِ وَالْجَافِى عَنْهُ ، وَإِكْرَامَ ذِى السُّلْطَانِ الْمُقْسِطِ)) أي العدل . إن من إجلال الله تعظيم الله سبحانه وتعالى إكرام ذي الشيبة المسلم أي لشيبته وكبر سنِّه ، فإكرامه هذا من إجلال الله ، عندما تكرم رجلا مسنا لأجل سنه لكبر سنه هذا الصنيع منك هو من إجلال الله سبحانه وتعالى لأن الله عز وجل أمرك بذلك ودعاك إليه. ومن إجلال الله إكرام حامل القرآن لكن بهذا القيد ؛ ((حامل القرآن غير الغالي فيه ولا الجافي عنه)) .

انتبه هنا إلى أمر مهم ؛ النبي صلى الله عليه وسلم يقول ((حَامِلِ الْقُرْآنِ غَيْرِ الْغَالِى فِيهِ وَالْجَافِى عَنْهُ)) إذًا قد يحمل القرآن حفظا وقراءة من هو غالٍ فيه ، وقد يحمله حفظا وقراءة من هو جافٍ عنه ، ولا يكون من أهله لا يكون حامل القرآن حفظا وقراءة إلا إذا لزم المنهج الوسط المستقيم الذي بُيِّن في هذا القرآن {وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ}[الأنعام:153] ، فإذا لم يكن حامل القرآن بهذا الوصف خرج إما إلى الغلو أو إلى الجفاء ، إما إلى الإفراط أو إلى التفريط ، إما إلى الزيادة أو إلى التقصير ؛ وكل منها خروجٌ عن صراط الله المستقيم .

وسبحان الله الشيطان -أعاذنا الله منه- له في هذا الباب شأن عجب ، مع من يقرأ القرآن أو يحفظ القرآن له مع هؤلاء شأن عجب ألا وهو : أنه يُشام القلوب ينظر إلى ماذا تميل؟ إذا وجد الشيطان من يقرأ القرآن يميل إلى التدين والطاعة العبادة والتمسك والمحافظة زاده في هذا الباب حتى يخرجه من الدين غلوًا فيه ، زاده في هذا الباب إلى أن يخرجه إلى حد التنطع والتشدد والغلو في دين الله سبحانه وتعالى ، فيأتي عليه مرحلة لا يرى الأعمال التي في القرآن بشيء الأمر أعظم من ذلك فيغلو ويتجاوز حدود الله سبحانه وتعالى التي حدها لعباده وأمرهم بها غلوًا في دين الله جل وعلا ؛ وهذا هلاك قال الله عز وجل {يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ}[النساء:171] ، قال عليه الصلاة والسلام ((إِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِالْغُلُوِّ فِي الدِّينِ)) ، لا يستهين المرء بالغلو في الدين ولو في شيء قليل تُدرك ذلك من الموطن الذي قال فيه النبي صلى الله عليه وسلم ((إِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِالْغُلُوِّ فِي الدِّينِ)) ، أتذكرون متى قال ذلك؟ لما التقطت له الحصيات سبع هن مثل حصى الخذف صغيرات وضعهن في يده ورفعهن للناس قال ((بمثل هذا فارموا وإياكم والغلو)) لأن بعض الناس يأتي مثلا إلى هذا الموطن رمي الجمار حصاة صغيرة يقول في نفسه "حصاة صغيرة هذه ما تكفي صغيرة هذه ،لابد أن آخذ حجرا كبيرا" ، ولهذا بعضهم يغلو حتى في هذا المثال الواضح فلا يكتفي بالحصاة الصغيرة ويأخذ حجرا أو حذاء ، وإنما شرع رمي الجمار لذكر الله فلا يذكر الله وإنما يسخط ويسب ، قال ((بمثل هذا فارموا وإياكم والغلو فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو في الدين)) ، الغلو هلاك ، هلاك لصاحبه ومردٍ لصاحبه .

الحاصل أن الشيطان يشام القلب ينظر إلى ماذا يميل ؛ إذا وجده يميل إلى التدين والطاعة والعبادة جعله يزيد في هذا الأمر إلى أن يخرج من الدين غلوًا فيه ، وإذا وجد أن نفس الإنسان يميل إلى الفتور والكسل والراحة أخذ به إلى جانب التفريط والإهمال والتضييع والتهاون . ولهذا تجد أحيانا من هو قارئ للقرآن لكن مفرط في الصلاة ، الصلاة التي هي أعظم أمور الدين بعد التوحيد تجده مفرط فيها مضيع لها لا يقيمها كما أُمر في القرآن ، يقرأ الآيات التي في القرآن أمرًا بإقامة الصلاة وحفاظا عليها وإقامةً لها في وقتها يقرأها وهو يتهاون فيها ويفرط ، وإذا فرط في الصلاة وضيَّعها فهو لما سواها من أمور الدين أضيع .

فيشام القلب وينظر ؛ إن وجد فيه ميلًا إلى العمل أوجد في نفسه تقليلا من العمل الذي في القرآن وفي سنة النبي صلى الله عليه وسلم حتى يغلو في دين الله ، وإن وجده متهاونا كسولًا أخذ به إلى جانب الجفاء ، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام ((اقْرَءُوا الْقُرْآنَ، وَلَا تَغْلُوا فِيهِ، وَلَا تَجْفُوا عَنْهُ)) أي كونوا وسطًا ، وخيار الأمور أوساطها لا تفريطها ولا إفراطها ، هذا خيار الأمور أن يكون الإنسان وسطًا ، والوسطية هي الخيرية ، هي الاستقامة ، هي البينية ، البينية بين الغلو والجفاء ، وما من أمرٍ من أمور الدين إلا وله طرفان ووسط في العقيدة في العبادة في السلوك ، ويُقرأ في هذا كلامًا عظيما مفصَّلا للإمام ابن القيم في كتابه «إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان» ، لأنه ذكر رحمه الله أن من مصائد الشيطان ما أشرت إليه آنفا أنه يشام القلوب ثم يأخذ بالإنسان إما إلى الغلو أو إلى الجفاء ، وذكر أمثلة كثيرة جدا ربما تقرب من الثلاثين مثلا عظيمة جدا في بيان أنه ما من أمر من أمور الدين إلا وله طرفان ووسط ، أحد الطرفين الغلو ، والطرف الآخر الجفاء ، والوسط هو الصراط المستقيم الذي رضيه الله سبحانه وتعالى لعباده ولا يرضى لهم دينا سواه ، وهذا لا يختص بالاعتقاد بل يشمل الاعتقاد ويشمل العبادة ويشمل السلوك والتعامل وغير ذلك من أمور الدين ، فكل أمر من أمور الدين له طرفان ووسط ؛ غلو وجفاء هذا طرفان ، والوسط هو الصراط المستقيم الذي رضيه لعباده سبحانه وتعالى ولا يرضى لهم دينا سواه .

هذا الصراط المستقيم الذي رضيه الله سبحانه وتعالى لعباده ولا يرضى لهم دينا سواه له معالِم مبينة في القرآن :

* أعظم هذه المعالم أن تخلص دينك لله ، وأن تقصد بأعمالك وجه الله ، وأن تطلب بها رضاه {وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ}[البينة:5] ، {أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ}[الزمر:3] ، والإخلاص خلاصٌ ونجاة . والمخلص لله في عمله مبتغيا بعمله وجه الله قريبٌ من السداد والتوفيق ، فالإخلاص خلاص ونجاة ؛ ولهذا ينبغي أن يجاهد المرء نفسه على طلب رضا الله سبحانه وتعالى بعمله ، لا يريد بعمله شهرةً ولا سمعةً ولا رياءً ولا صيتًا ولار غير ذلك وإنما يريد أن يرضى الله عنه ، وكثير ما يقع الناس في الهلاك والغلو بخروجهم عن الإخلاص لله سبحانه وتعالى .
* ومن هذه المعالم : أن يُلزم المرء نفسه بالهدي القويم الذي كان عليه الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام ؛ بأن يكون متبعًا لا مبتدعا ، وأن يكون مقتديًا لا مبتدئا ، لا يبتدئ شيئا من قِبل نفسه ولا ينشئ عملا من قبل نفسه ، وإنما يقيد نفسه بالهدي المأثور عن نبينا الكريم عليه الصلاة والسلام يُلزم نفسه به يجاهد نفسه عليه ، قد قال عليه الصلاة والسلام ((مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ)) أي مردود على صاحبه غير مقبول.
* الأمر الثالث: أن يجاهد نفسه على الاستقامة والسلامة من الانحراف ، وهذا أمر يحتاج إلى مجاهدة {فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ}[هود:112] ، أي كما أمرك الله عز وجل . والاستقامة مجاهدة للنفس على لزوم صراط الله المستقيم وعدم الانحراف عنه ، وهذا يتطلب من العبد مجاهدة عظيمة لنفسه {وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ}[العنكبوت:69] .
* ومن معالم هذا النهج العظيمة : أن تبرأ من حول نفسك وقوتها ، {وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ}[هود:88] ، فوِّض أمرك إلى الله واطلب المعونة منه جل في علاه وافزع إليه صادقا معه جل وعلا في طلب العون ((يَا مُعَاذُ وَاللَّهِ إِنِّى لأُحِبُّكَ ، فلاَ تَدَعَنَّ فِى دُبُرِ كُلِّ صَلاَةٍ تَقُولُ اللَّهُمَّ أَعِنِّى عَلَى ذِكْرِكَ وَشُكْرِكَ وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ)) .
* ويلتحق بهذا من المعالم :كثرة الدعاء ، ولاسيما ما كان من الدعاء متعلقًا بهذا الباب . وكثيرا ما كان يوصي شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى في هذا المقام بالدعاء العظيم المأثور عن النبي صلى الله عليه وسلم الذي كان يستفتح به صلاته من الليل « اللَّهُمَّ رَبَّ جِبْرَائِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَإِسْرَافِيلَ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ اهْدِنِي لِمَا اخْتُلِفَ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِكَ إِنَّكَ تَهْدِى مَنْ تَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ » ، ووالله إن الإكثار من هذا الدعاء منجاةٌ للعبد وهدايةٌ له وصلاحٌ له في دنياه وأخراه ، ويكفي دليلًا على ذلك أنه ليس شيء من الأدعية فُرض علينا أن ندعو الله به مرات كثيرة في اليوم والليلة فرضا إلا ذلك الدعاء العظيم الذي في سورة الفاتحة {اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (6) } ، هذا الدعاء فرض الله عليك في اليوم والليلة أن تدعو به سبع عشرة مرة بعدد الركعات المكتوبة المفروضة ، سبع عشرة مرة في اليوم والليلة في الفرض تدعو الله {اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (6) } هذا دعاء {اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (6) }ما هو؟ { صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ (7)} المغضوب عليهم غلاة ، والضالون جفاة ((اقْرَءُوا الْقُرْآنَ، وَلَا تَغْلُوا فِيهِ، وَلَا تَجْفُوا عَنْهُ)) .

وأسأل الله الكريم رب العرش العظيم بأسمائه الحسنى وصفاته العليا أن يسلُك بنا جميعًا صراطه المستقيم، وأن يهدينا إليه صراطًا مستقيما ، وأن يعيذنا من الضلال ، ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب ، اللهم إنا نعوذ بك أن نضِل أو نُضل ، أو نزِل أو نُزل ، أو نظلِم أو نُظلم ، أو نجهل أو يُجهل علينا ، اللهم أصلح لنا ديننا الذي هو عصمة أمرنا ، وأصلح لنا دنيانا التي فيها معاشنا ، وأصلح لنا آخرتنا التي فيها معادنا ، واجعل الحياة زيادة لنا في كل خير، اللهم آت نفوسنا تقواها ، زكها أنت خير من زكاها ، أنت وليها ومولاها ، اللهم اقسم لنا من خشيتك ما يحول بيننا وبين معاصيك ، ومن طاعتك ما تبلغنا به جنتك ، ومن اليقين ما تهون به علينا مصائب الدنيا ، اللهم متعنا بأسماعنا وأبصارنا وقوتنا ما أحييتنا واجعله الوارث منا ، واجعل ثأرنا على من ظلمنا وانصرنا على من عادانا ، ولا تجعل مصيبتنا في ديننا ، ولا تجعل الدنيا أكبر همنا ولا مبلغ علمنا ولا تسلط علينا من لا يرحمنا ، اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون اهدنا لما اختُلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم .

سبحانك اللهم وبحمدك ، أشهد ان لا إله إلا أنت ، أستغفرك وأتوب إليك .

اللهم صل وسلِّم على عبدك ورسولك نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين .